الصوت محاضرة٧: الابتداء

الظواهر الصوتية :-

١- الابتداء :-

إنّ ابتداء الكلام يعد من الخصائص الهامة التي يتصف بها النطق الانساني ، فلابد من ابتداء الكلام في حالة التكلم مثلما لابد من انتهائه ، وقد وضع علماء العربية شروطا وقواعد عن طريق الاستقراء الواسع لكلام العرب ، وبالنظر الى اول الكلمة المنطوقة ، وما تبدأ به عند نطقها من المتكلم قالوا : (كل كلمة يبتدأ بها من اسم وفعل وحرف ، فأول حرف تبتدأ به هو متحرك ثابت في اللفظ).

وثبت لهم ان العربية لا تقرأ الابتداء بالساكن ، فلا تبتدأ الا بمتحرك ، وإنّما الساكن يأتي عندما يوقف على الكلمة ، فاذا صدف أن ورد في اول الكلمة ساكن واريد الابتداء به اجتلبت الى الكلمة همزة متحركة ، أطلقوا عليها (همزة الوصل) وظيفتها المساعدة في نطق الساكن في الابتداء ، إنّ همزة الوصل – إذن – تلحق الكلمات في بداية النطق بها لتوصل الى النطق بالساكن الذي يليها ، أمّا اذا وقعت هذه الكلمات في وسط الكلام فلا حاجة الى همزة الوصل ؛ لأن الصوت الاخير من الكلمة الذي يسبق الساكن المذكور سيقوم بتحمل وظيفة الوصل بواسطة الحركة التي يشكل بها ، ومن ثم يقوم مقام الهمزة ، وتقوم حركته مقام حركة الهمزة نحو : واعمل خيرا ، واعشوشبت الارض .

لذلك همزة الوصل عند القدماء زائدة وظيفتها النطق بالساكن أو التوصل للنطق بالساكن وتسقط في الدرج لفظا لا خطاً نحو : واعمل صالحا ، واعشوشبت الارض .

فهمزة الوصل ليست من الاصول التي تبنى منها الفاظ العربية ، وانّما هي وسيلة صوتية تكون عمادا للنطق بأصوات البناء الاصلية ، فقال الخليل : (والألف التي في اسحنكك واقشعرّ ليست من اصل البناء ، وإنّما ادخلت هذه الالفات في الافعال وأمثالها من الكلام لتكون الالف عمادا وسُلّماً للسان

الى حرف البناء ، لأن اللسان لا ينطق بالساكن من الحروف فيحتاج الى الف الوصل).

ولقد أكّد المحدثون ما ذهب اليه القدماء ،من أن همزة الوصل وسيلة صوتية طارئة ليست من بنية الكلمة ، وإنّما اجتلبت عند بداية النطق بالساكن الذي لا يقرّه الاستعمال اللغوي عند العرب ، فكانت همزة الوصل تلك الوسيلة الصوتية التي تحرّك سكون البداية ، تثبت في الابتداء وتسقط في الدرج ، وكأن السياق الاستعمالي كره توالي الصمت الذي يسبق الكلام والسكون الذي اتصف به الصوت الساكن الذي يجيء في بداية الكلام ، فكأنه في نظر الذوق الاستعمالي أشبه ما يكون بالتقاء الساكنين الذي ينبغي التخلص منه .

ذهب بعض المحدثين الى أنّها صامت يتبعه صائت أي (ء ـَ) على أساس انّ المقطع العربي لا يبدأ بصائت يتبعه صامت ، في حين ذهب أغلبهم الى أنّها صائت متبوع بصامت أي (ـَ ء) ، لذلك يرى بعض هؤلاء أن همزة الوصل هي نوع من التحريك الذي يسهل عملية النطق بالساكن .

والذي يبدو أن الحركة (الصائت) هي السبب الرئيس في إحداث عملية الابتداء ، أي إن الصائت هو الذي اختارته العربية ليقوم بعملية الابتداء ، وقد اضيفت الهمزة لتصحيح المقطع العربي ، كي لا يبتدأ بصائت ، لأن المجموعة الكلامية لا تعترف بأن تبتدأ بحركة ، لذلك تجلب همزة قبل الحركة ، لتكون عاملا مساعدا للنطق بها لأنه اذا كانت همزة فان اصل هذه الهمزة هو السكون كما أكّد ذلك علماء العربية ، فلو أضيفت وهي ساكنة لالتقى ساكنان وهو مالا يقره النظام اللغوي عند العرب .

غير أن العلماء العرب عدّوا مجيء الحركة (الصائت) متأخرا على الهمزة ووظيفتها منع التقاء الساكنين ، ونحن لا نختلف كثيرا معهم فنذهب الى أن أصل الابتداء هو الحركة ، واضيفت الهمزة مقترنة معها لتؤدي وظيفة المحافظة على سلامة المقطع العربي ، فضلا على وظيفتها الدلالية ، فاذا ورد في الابتداء ساكن في الكلام العربي لجأ المتكلم الى اضافة

صائت للتخلص من هذا النطق . غير أنّه يواجه أن يبدأ المقطع بحركة وهو مالا يجيزه نظام المقطع العربي ، فزيدت الهمزة لتصحيح المقطع فجاء البناء المقطعي عند العرب صامتا يتبعه صائت أي (همزة + حركة)

فشكلت الحركة (الصائت) مع (الصامت) محور الابتداء إذ لا يمكن الفصل بينهما في الابتداء ، فلا همزة من دون حركة ؛ لأنه سيؤدي الى تتابع صامتين ، وهو مالا يقره الاستعمال اللغوي عند العرب ، ولا حركة من دون همزة ، لأنه سيؤدي الى البدء بصائت وهو ممتنع ايضا في نظام المقطع العربي ، ومن ثم فالهمزة والحركة عنصران مهمان في عملية البدء في الكلام ، ولا يبعد أن يشكل الصائت أثرا مهمّاً فيها ، إن لم نقل أنّه يتحمّل الوظيفة بكاملها ، وما الهمزة الا لتصحيح البناء اللغوي العام ، مع الاخذ بالاعتبار وظيفتها الدلالية ، فالهمزة إذن لا يمكن ان نعدها وسيلة صوتية طارئة على بنية الكلمة وظيفتها النطق بالساكن الذي بعدها ، وذلك لأنها لا تختلف عن صوت (التاء) مثلا في كلمة (تضرب) ، فلو أخذنا الفعلين (اضرب) و (تضرب) فالفرق بينهما معنوي مع تقاربهما في عدد المقاطع ؛ فكلاهما من مقطعين طويلين ، أي :

/ ءِ- ض / رِ- ب/ ، / ت ـَ ض / ر ـِ ب / .

فلو حذفنا الهمزة من الفعل (اضرب) لكانت بدايته بالصوت الساكن ، وكذلك لو حذفنا (التاء) من الفعل (تضرب) لكانت بدايته بالصوت الساكن ، فهل معنى ذلك ان التاء في الفعل (تضرب) جيء بها للنطق بالساكن الذي بعدها ، مما يعني تسميتها بتاء الوصل ؟

فما يسمى بهمزة الوصل في بداية الكلام صوت له دلالة معنوية أكثر من دلالته الصوتية ، وعملية الابتداء تستند الى صوت صفير هو ذلك الصوت الذي يطلق عليه في العربية الحركة سواء جاءت مع الهمزة أو أي صوت اخر من اصوات العربية ، يضاف الى ذلك أن اصوات العربية عند نطقها لوحدها تحتاج الى وسيلة صوتية حتى يتسنى نطقها ، فلا يمكن نطقها ساكنة ، لذلك ذهب القدماء الى أنّ نطق هذه الاصوات يكون بمساعدة همزة الوصل فنقول : اك ، اق ، اج ، وكذلك سائر الاصوات .

معنى ذلك أنه ليس ممكنا لدى العرب تصوّر صوت في اللغة العربية من دون أن تسبقه أو تلحقه حركة .

على الرغم من أن الحركة لم تكن من تأليف أصول أبنية الكلمة عند العلماء العرب فانها تمثل عنصرا اساسيا في تأليف الصيغ المتفرعة عن هذه الاصول فاذا كان الاصل الصرفي (زرع) – مثلا مقصورا على هذه الاصوات الثلاثة فان الصور الصرفية المأخوذة منه ما كان لها أن توجد ولا تبنى هذا البناء من دون حركات كما يبدو في نحو (زَرَعَ ، زُرِعَ ، زارع ، مزروع).